البلاغة العربيّة والبلاغة الحجاجيّة (الإقناعيّة) .. توافقٌ أم افتراق ؟

أ.م.د هناء عبد الرضا رحيم الربيعيّ– جمهوريّة العراق/ جامعة البصرة

كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة/ قسم علوم القرآن والتربية الإسلاميّة

تقديم:

إنّ مفهوم (البلاغة) قد يتغيّر في أيّة حضارة تبعاً للتطوّرات المجتمعيّة والثقافيّة والفكريّة التي أحاطت به؛ ولهذا فهو قد يتباين ويختلف من حضارة إلى أخرى، والبحث في مفهوم البلاغة الجديدة (الحجاجيّة الإقناعيّة) في دراساتنا العربيّة المعاصرة يعطي صورة واضحة لحركة التغيير والتطوير التي يدعو إليها المثقّفون والمعنيّون بهذا الشأن، وبما يتلاءم مع التطوّر السريع لمقوّمات العالم الثقافيّ، ولكنّها دعوة تحتاج إلى إعادة نظر لما انتجه الدارسون حولها، ومتابعة تطبيقهم لأسسها على البلاغة العربيّة التراثيّة، والاطّلاع على آليّة استلهامهم للتجربة الغربيّة المنطلقة من أصول فلسفيّة قديمة، فمحاولة نقل التجربة بكلّ جذورها، وإقحام فكرة (البلاغة الجديدة) في دراساتنا اللغويّة– في بعض المباحث– أمر مشوب بالحذر، إذ من الطبيعي أن يتغيّر مفهوم (البلاغة) تبعاً للتطوّرات الحادثة، ولكن أن يتمّ استنساخ التجربة بكلّ جوانبها وأن يتمّ اخضاع البلاغة العربيّة التراثيّة لهذه التجربة هنا تكمن المشكلة، ولأسباب كثيرة، أهمّها: أنّ خصوصيّة كلّ لغة توجبها ظروف متعدّدة تسهم في تكوينها واستقرارها، وعلى الرغم من أنّ محاولة تطوير علوم اللغة والنهضة بها حقّ مشروع لكلّ متخصّص في هذا المجال إلا أنّ استبعاد هذه الخصوصيّة، وعدم مراعاة ظروف النشأة للعلوم يشكّل خللاً في عمليّة التطوير ذاتها.

وتندرج محاولة تطبيق تجارب الغرب على تراث البلاغة العربيّة ضمن محاولات التطوير تلك، فهي قد أعطت ثماراً، بعضها كانت إيجابيّة والأخرى سلبيّة، وهذان الأمران أفرزا لنا مجموعة توافقات وتقاطعات في ميادين مختلفة من هذا العلم، وردت في مؤلّفات الدارسين أنفسهم، بعضهم أدركها بفطنته ونبّه إليها، في حين غابت عن البعض الآخر ولم ينتبه إليها أصلاً، من أمثلة: تحديد مفهوم المصطلح المستعمل للبلاغة، وظروف النشأة والمهاد، والهدف المتوخّى ومجال التأثير والتطبيق، والمكوّنات البنائيّة لهذه البلاغة، والآليّات المتّبعة في المعالجة، ومفاهيم المصطلحات المندرجة تحتها، فضلاً عن تباينات أخرى يستعرضها البحث.

ويدخل بحثنا ضمن محور (الدراسات القرآنيّة والبلاغيّة) كونه يتعرّض للتحديّات التي تمرّ بها البلاغة العربيّة المعاصرة، ويتعرّض لآليّة من آليّات تطوير ميادينها، فالبحث لا يحثّ على الانقطاع عن الحداثة بل الإفادة منها، ولكنّه يركّز في نظرته على خصوصيّة

البلاغة العربيّة، ويحاول أن يشجّع على تطويع الفكر المنقول لمقاييسها لا العكس- مثلما يحصل كثيراً- وبذلك نحافظ على تراثنا وعلى خصوصيّة علومنا بدلاً من الضياع في شخصيّة الآخر.

يهدف البحث إلى محاولة الوقوف على التحديّات التي تتعرّض لها البلاغة العربيّة المعاصرة في ضوء الدراسات المستحدثة نتيجة تيارات الحداثة والتجديد البلاغيّ، وذلك من خلال توجيه الضوء نحو التوافقات والفروقات الواقعة فعلاً بين البلاغتين (الغربيّة الحجاجيّة، والعربيّة التراثيّة) كون البلاغة العربيّة حافظت على شكلها القواعديّ بعد أن استقرّت في زمن السكاكيّ (ت٦٢٦هـ) وحتى عصرنا الحالي، ولم تستجب لمحاولات التطوير التي نادى بها الدارسون على الرغم من كثرتها؛ نظراً لقوّة البناء الذي أقام عليه العلماء القدماء صرحها، ولكي لا يتعطّل خط سير علم البلاغة عن التطوير ينبغي أن نضعه ضمن مساره الطبيعيّ، المنطلق من ذات البلاغة العربيّة ومقاييسها وخصوصيّاتها، لا أن نفرض عليه تجارب الآخرين بمقاييسهم وخصوصيّاتهم فرضاً، وهذا ما ندعو إليه دائماً وأبداً من أنّ الانطلاق ينبغي أن يكون من التراث إلى الحداثة لا أن يحدث العكس.

والمنهج الذي اتبعناه في الدراسة هو المنهج الوصفي التحليليّ كونه المنهج الأنسب لحيثيّات البحث، ونحن نتوقع أن نصل بالبحث إلى مجموعة نتائج، منها:

_ توصيف سليم للبلاغة العربيّة قياساً إلى البلاغة الحجاجيّة الإقناعيّة من خلال الوقوف عند نقاط الاتّفاق والافتراق بينهما.

- تحديد مواقع الخلل التي قد وقع فيها الدارسون المعاصرون في نقل التجربة من خلال المحاور المتباينة.

- إيجاد نظرة توافقيّة تستطيع أن تجمع الأفكار الإيجابيّة في المؤلّفات المستحدثة وتطبيقاتها من دون تشويه للمضمون من خلال الآليّات المقترحة.

وبما أنّ الدراسة تتبع الجانب التأريخي لتطوّر البلاغة فهي ستعتمد تقديم البلاغة الغربيّة الحجاجيّة الإقناعيّة على البلاغة العربيّة التراثيّة في الطرح كونها الأقدم، وهي الأساس الذي انطلق منه الدارسون ليتمّ تطبيق أسسها لاحقاً على البلاغة العربيّة.